اخْتِيارُ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ
تَوْجِيهٌ رَبَّانِيٌّ

أَيْ بُنَيَّ، لَقَدْ أَمَرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بِحُسْنِ اخْتِيَارِ الصُّحْبَةِ، فَقَالَ -عَزَّ وَجَلَّ- مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ -ﷺ-: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكَهْف: ٢٨].

قَالَ الطَّبَرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: « وَاصْبِرْ يَا مُحَمَّد نَفْسَكَ مَعَ أَصْحَابِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، بِذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ بِالتَّسْبِيحِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالدُّعَاءِ، وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنَ الصَّلَوَاتِ المَفْرُوضَةِ وَغَيْرِهَا، يُرِيدُونَ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ وَجْهَهُ، لا يُرِيدُونَ بِهِ غَرَضًا مِنْ غَرَضِ الدُّنْيَا »(١).

(١) « تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ » (١٥ / ١٥٤).

فَانْظُرْ - يا بُنَيَّ - إِلَىٰ تَوْجِيهِ اللهِ، واخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ لِنَبِيِّهِ - ﷺ - حَيْثُ أَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَرْجُونَ اللهَ وَقَارًا، وَلا يُرِيدُونَ غَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَمِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُمْ بَشَرٌ كَسَائِرِ الْبَشَرِ، فَلا يَحْسُنُ أَنْ نُعَاتِبَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، فَمَا ذَاكَ بِأَخْلاقِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ: «مَا مَسِسْتُ دِيبَاجًا وَلا حَرِيرًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، وَلَقَدْ خَدَمْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلا لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟، وَلا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»(١).

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٦١)، ومُسْلِمٌ (٢٣٠٩).

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الذي يقول:

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمُورِ مُعاتِبًا
صَدِيقَكَ ، لَمْ تَلْقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ

وإنْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا على القَذَى(١)
ظَمِئْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفو مَشَارِبُهْ؟!

فَعِشْ واحدًا، أَوْ صِلْ أخاكَ؛ فإِنَّهُ
مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُهْ (٢)

وقَالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ :

وَمَنْ لا يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِه
وَعَنْ بَعْضِ مَا فيهِ يَمُتْ وَهُوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبَّعْ - جَاهِدًا - كُلَّ عَثْرَةٍ
يَجِدْهَا، وَلا يَسْلَمْ لَهُ - الدَّهْرَ - صَاحِبُ(٣)

---

(١) القَذَى - بِزِنَةِ الفَتَى - : مَا يَقَعُ في الشَّرَابِ مِنْ تُرابٍ ووَسَخٍ ونَحْوِهِما، الواحدة: قَذَاةٌ .

(٢) الشِّعْرُ لبشَّار بْن بُرْد، كَما في «أدب الدُّنْيا والدِّين» (ص١٧٨).

(٣) «مُحاضَراتُ الأُدَباء وَمُحاوَرَاتُ الشُّعَرَاء والبُلَغَاء» للرَّاغب (٣ / ١٥).

حثُّ النَّبيِّ - ﷺ -
على اختيارِ الصَّاحبِ الصَّالحِ

أيْ بُنَيَّ، لَقَدْ حَثَّ النَّبيُّ - ﷺ - عَلَىٰ حُسْنِ اخْتِيارِ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ.

فَعَنْ عَمْرو بن العاص - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**ألا إنَّ آلَ أبي فُلانٍ لَيْسُوا بأَوْلِيائي، إنَّما وليِّيَ اللهُ، وَصَالِحُ المُؤْمنينَ**»(١).

وَعَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ - رضي الله عنه - أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قَالَ: «**لا تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِنًا، ولا يأْكُلْ طعامكَ إلاَّ تَقِيٌّ**»(٢).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٩٩٠)، ومُسلمٌ (٢١٥).

(٢) حَسَنٌ، رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٠٩٤٤)، والتِّرْمِذيُّ (٢٣٩٥)، وأبو داوُدَ (٤٨٣٢)، وحسَّنهُ الألْبَانيُّ في «المشكاة» (٥٠١٨)، و«صَحِيْح الجَامِعُ» (٧٣٤١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**المرءُ علىٰ دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَن يُخَالِلُ**»(1).

فَبَيَّنَ - هُنَا - أَنَّ المرْءَ مُشَاكِلٌ وَمُمَاثِلٌ لِخَلِيلِهِ وَجَلِيسِهِ فِي الاسْتِقَامَةِ وَالصَّلاحِ وَعَدَمِهِمَا؛ وَلِذَا قَالَ - مُرَغِّبًا فِي اخْتِيَارِ الجَلِيسِ -: «**فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَن يُخَالِلُ**»، أَيْ: لِيَتَبَيَّنْ مَنْ خَلِيلُهُ، وَلْيَخْتَبِرِ الخَلِيلَ وَالصَّاحِبَ الْمَرْضِيَّ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ.

قَالَ الخَطَّابِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: (قَوْلُهُ: «**المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ**» مَعْنَاهُ: لا تُخَالِلْ إِلاَّ مَنْ رَضِيتَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ؛

(1) حَسَنٌ، رواهُ أحمدُ (2 / 303)، وأبو داودَ (4833)، والترمذيُّ (2378)، ثلاثتُهم بلفظ (الرَّجُل)، والحاكم (4 / 171)، وحسَّنَهُ لغيرِه الألبانيُّ في «الصَّحيحَة» (927)، وحسَّنَهُ شيخنا الوادعيُّ في «الصَّحيح المسند مما ليسَ في الصَّحيحَيْنِ» (2 / 331).

فَإِنَّكَ إِذَا خَالَلْتَهُ ، قَادَكَ إِلَىٰ دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ، فَلا تُغَرِّرْ بِدِينِكَ، وَلا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ، فَتُخَالِلَ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ) [١].

---

(١) «الذَّرِيعَةُ إِلَىٰ مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ» (ص١٩٢).

الإِنْسَانُ يُؤَثِّرُ وَيَتَأَثَّرُ

أَيْ بُنَيَّ، الإِنْسَانُ بِطَبْعِهِ يُؤَثِّرُ وَيَتَأَثَّرُ، يُؤَثِّرُ عَلَىٰ غَيْرِهِ وَيَتَأَثَّرُ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الأَصْحَابِ، وَحَتَّىٰ لَوْ كَانَ هَذَا الصَّاحِبُ حَيَوَانًا، وَعَلَىٰ هَذَا أَدِلَّةٌ قَاطِعَةٌ، وَبَرَاهِينُ سَاطِعَةٌ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**رَأْسُ الْكُفْرِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالْفَدَّادِينَ** (٢) **أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ**».

فَهَذَا الْحَدِيثُ -يَا بُنَيَّ- مِنْ أَبْلَغِ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ أَنَّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٠١)، وَمُسْلِمٌ (٥٢).

(٢) الفَدَّادِين -مُثَقَّلًا-: أَصْحَابُ الإِبِلِ مِنَ المِائَتَيْنِ إِلَىٰ الأَلْفِ، وَأَحَدُهُمْ فَدَّادٌ، وَهُوَ مِنَ الفَدِيدِ، وَهُوَ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ.

الإنْسَانَ ويَتَأَثَّرُ بِغَيْرِهِ مِنَ الأَصْحَاب، فَهَا هُوَ يَتَأَثَّرُ بِحَيَوَانٍ بِسَبَبِ صُحْبَتِه.

فَالخَيْلُ - يَا بُنَيَّ - لَمَّا كَانَتْ تَمْشِي تَبَخْتُرًا؛ أَوْرَثَتْ مَنْ يُصَاحِبُهَا كِبْرًا، وَالنَّاقَةُ لَمَّا كَانَتْ تَمْشِي رَافِعَةً رَأْسَهَا؛ أَوْرَثَتْ مَنْ يُصَاحِبُهَا عُجْبًا، وَالْبَقَرُ أَوْرَثَتْ مَنْ يُصَاحِبُهَا جَفَاءً وَغِلْظَةً؛ إِذْ ذَلِكَ طَبْعُهَا، وَالشَّاةُ لَمَّا كَانَتْ سَاكِنَةً ؛ أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا سُكُونًا، وَلا يَقِفُ الأَمْرُ هُنَا، فَهَا هُوَ الحَيَوَانُ يَتَأَثَّرُ بِالإِنْسَانِ، فَقَدِ اكْتَسَبَ مِنْهُ الْمُؤَالَفَةَ، وَقِلَّةَ النَّفْرَةِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: «الآدَمِيُّ إِذَا عَاشَرَ نَوْعًا مِنَ الحَيَوَانِ اكْتَسَبَ بَعْضَ أَخْلاقِه؛ وَلِهَذَا صَارَتِ الخُيَلاءُ وَالْفَخْرُ فِي أَهْلِ الإِبِلِ، وَصَارَتِ السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ، وَصَارَ الجَمَّالُونَ والبَغَّالُونَ فِيهِمْ أَخْلاقٌ مَذْمُومَةٌ مِنْ أَخْلاقِ الجِمَالِ والْبِغَالِ، وَكَذَلِكَ الكَلاَّبُونَ،

وَصَارَ الحَيَوانُ الإنْسيُّ فيه بَعْضُ أخلاق النَّاسِ مِنَ المُعَاشَرَة، وَالمُؤَالفَة، وقلَّة النّفْرَة، فالمُشابهة في الأُمُورِ الظَّاهِرَةِ تُوجِبُ المُشَابَهَةَ في الأُمُورِ البَاطِنَة عَلَىٰ وَجْه المُسَارَقَة وَالتَّدرُّجِ الخَفيِّ»(١).

أيْ بُنَيَّ، مَعَ إيماني الشَّديد بصحَّة الحَديث، وَصدْق المَعْصُومِ؛ فَقَدْ طَبَّقْتُ ذَلكَ، وَجَرَّبْتُ مَعَ النَّاسِ مِنْ بَاب «وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي».

وَمَعَ أَنِّي لا أحْتَاجُ لذَلكَ، لَكنِّي كُنْتُ أَسْتَرْوِحُ لنَفْسِي بُغْيَةَ تَقْرير الأَحَاديث في الذِّهْنِ، فَلا أَنْسَىٰ مِنْ ذَلكَ شَيْئًا.

فَجَرَبْتُ ذَلكَ مَعَ الخَيْلِ وَمَعَ أَصْحَابِهَا، وَحَسْبُكَ مَا صَحَّ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ رَكِبَ بِرْذَوْنًا(٢)، فَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بِهِ،

(١) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٤٨٧).
(٢) البِرْذَوْنُ: -بالكسر- من الخَيْلِ وَالبِغَال: مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ نتَاجِ العِرَابِ، والجمعُ: بَرَاذِيْنُ. انظر «لسان العرب» (١/ ٣٧٠).

فَجَعَلَ عُمَرُ يَضْرِبُهُ، فَلا يَزْدَادُ إِلاَّ تَبَخْتُرًا، فَنَزَلَ عَنْهُ، وَقَالَ: «مَا حَمَلْتُمُونِي إِلاَّ عَلَىٰ شَيْطَانٍ؛ مَا نَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّىٰ أَنْكَرْتُ نَفْسِي»(١).

وَأَمَّا الإِبِلُ فَالْحَدِيثُ عَنْهَا وَعَنْ أَصْحَابِهَا ذُو شُجُونٍ(٢)، لَكِنْ حَسْبُكَ مِنَ الزَّادِ مَا يُبَلِّغُكَ الْمَحَلَّ؛ فَأَذْكُرُ أَنِّي الْتَقَيْتُ بِصَاحِبِ إِبِلٍ، فَسَاوَمْتُ(٣) عَلَىٰ مَا فِي ضَرْعِ بَعْضِهَا، فَطَارَ صَوَابُهُ، فَلا زِمَامَ مِنْ دِينٍ، وَلا لِجَامَ مِنْ أَخْلاقٍ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ الإِبِلِ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ هَذَا الْغَالِبُ فِي حَقِّ مَنْ خَلا بِالإِبِلِ، وَأَنِسَ بِهَا مِنْ دُونِ النَّاسِ.

---

(١) أخرجَهُ الطَّبريُّ (١/ ٧٦)، وابنُ أَبِي شَيبة في «تأريخ المدينة» (٣/ ٨٢٢، ٨٢٣).

(٢) الحديثُ ذُو شُجُونٍ أي: ذُو شُعَبٍ وامتسَاكٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ يُضْرَبُ هَذَا امثَلاً للحديثِ يُسْتَذْكَرُ بِهِ غَيْرُهُ.

(٣) سَاوَمَ عَلَىٰ السِّلْعَةِ: غَالَىٰ.

وأمَّا الشَّاة فَقَدْ خَلوْتُ بِها دَهْرًا أَرْعَاهَا، فَوَجَدْتُهَا سَاكِنَةً، فَسَكَنَت النَّفْسُ عَمَّا لا يَحْسُنُ وَلا يَجْمُلُ.

وَيَكْفِي رُعَاةَ الشَّاة فَخْرًا قَوْلُ النَّبِيِّ - ﷺ -: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًا إِلاَّ رَعَىٰ الغَنَمَ**».

فَقَالَ أَصْحَابُهُ: «**وَأَنْتَ؟**».

قَالَ: «**نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ**[1] **لأَهْلِ مَكَّةَ**»[2].

وأمَّا الفَدَّادُوْنَ أَصْحَابُ الإبل، فَقَدْ عَرَفْنَاهُمْ فِي الْبَوَادِي وَالْقُرَىٰ أَصْحَابَ جَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ.

وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مِنْ جِنْسِهِ

حَتَّىٰ الحَدِيدُ سَطَا عَلَيْهِ المِبرَدُ

---

(١) القَرَارِيطُ: جَمعُ القِيرَاطِ - بالكَسْرِ -، وهُو جُزْءٌ مِن الدِّينَارِ أَوْ الدِّرْهَمِ.

(٢) أخرَجَهُ البُخَارِيُّ (٢٢٦٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

تأثيرُ الصَّاحب

أيْ بُنَيَّ، إنَّ تأْثيرَ الصَّاحبِ في صَاحِبِه لَعَظيمٌ، وقَدْ لا يَتفَطَّنُ لِذَلكَ الأغْمَارُ [١] مِنَ النَّاسِ.

شَيْئانِ يَنْقُشانِ لأوَّلِ وَهْلَةٍ:

ظِلُّ الشَّبابِ ، وَخُلَّةُ الأشْرارِ

وَيَزْدَادُ التَّأْثيرُ إذَا كَانَ الصَّاحِبُ ذَا جَاهٍ ، أَوْ مَالٍ ، أَوْ لِسَانٍ ، أَوْ سَمْتٍ حَسَنٍ ، وَالمُصَاحِبُ دُونَ ذَلكَ.

فَفِي «الصَّحيحَيْنِ» [٢] مِنْ حَديثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ - رضي الله عنه -: أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ** [٣]،

---

(١) الأغْمَارُ: جَمْعُ غَمْرٍ - بالتَّثليث ويُحرَّك -، وهُو مَنْ لم يُجرِّب الأُمورَ.
(٢) أخرجَهُ البُخاريُّ (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (١٤٦ / ٢٦٢٨).
(٣) الكِيرِ - بالكَسْرِ - الزِّقُّ الَّذي ينفُخ فيه الحدَّاد، والجَمْعُ: أكْيارٌ وكِيرة.

فحامل المسك إما أن يحذيك (١) ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة».

وَهَذَا – يَا بُنَيَّ – حَدِيثٌ عَظِيمٌ، وَتَوْجِيهٌ مِنْ نَبِيٍّ كَرِيمٍ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، وقد أَرْشَدَ إِلَىٰ مُصَاحَبَةِ الصَّالِحِينَ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُصَاحَبَةِ مَنْ يُتَأَذَّىٰ بِمُصَاحَبَتِهِ، وبالمثَالِ يَتَّضِحُ المَقَالُ.

فَالجَلِيسُ الصَّالِحُ مَثَّلَهُ بِحَامِلِ المِسْكِ، مَتَىٰ جَالَسْتَهُ حَصَلَ لَكَ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلاثٍ:

إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، أَيْ: يُعْطِيكَ وَيُهْدِي إِلَيْكَ، أَوْ تَشْتَرِيَ مِنْهُ، أَوْ تَجِدَ مِنْهُ الرَّائِحَةَ الطَّيِّبَةَ المُؤَثِّرَةَ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَبَدَنِكَ وَثِيَابِكَ، فَكَذَلِكَ جَلِيسُكَ الصَّالِحُ لابُدَّ أَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْهُ، وَتَنْتَفِعَ بِمُجَالَسَتِهِ.

(١) **يحذيك**: أي يُعْطِيكَ.

وَشَبَّه الجَليس السَّوْء بنافخ الْكير ، فَهُو إمَّا أنْ يَتطَاير عَلَيْكَ من شَرر نَاره، فَيحْرق ثيَابك، أوْ تَجد منْهُ رَائحَةً كَريهَةً تُصيبُ بَدَنَكَ وَثَوْبَكَ ، فَكَذَلكَ جَليسُ السَّوْء لابُدَّ أَنْ تَتَضَرَّرَ بمُجَالَسَته .

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ - رَحمَهُ اللهُ -: « مثَّل النَّبيُّ - ﷺ - بهَذَيْنِ المثَالَيْنِ مُبَيِّنًا أَنَّ الجَليسَ الصَّالحَ جَميعُ أَحْوَالكَ مَعَهُ، وأَنْتَ في مَغْنَمٍ وَخَيْرٍ كَحَامل المسْك الَّذي تَنْتَفعُ بمَا مَعَهُ منَ المسْك : إمَّا بهبَةٍ ، أَوْ بعوَضٍ، وأَقَلُّ ذَلكَ مُدَّةَ جُلُوسكَ مَعَهُ ، وَأَنْتَ قَريرُ النَّفْس برَائحَة المسْك، فَالخَيْرُ الَّذي يُصيبُهُ الْعَبْدُ منْ جَليسه الصَّالح أَبْلَغُ وَأَفْضَلُ منَ المسْك الأَذْفَر[1] ؛ فَإنَّه إمَّا أَنْ يُعَلِّمُكَ مَا يَنْفَعُكَ في دينكَ وَدُنْيَاكَ، أَوْ يُهْدي لَكَ نَصيحَةً، أَوْ يُحَذِّرُكَ منَ الإقَامَة عَلَى مَا يَضُرُّكَ، فَيَحُثُّكَ عَلَى طَاعَة

---

(١) المسْك الأذْفر: الجَيِّدُ إلى الغَايَة .

اللهِ، وبرِّ الوَّالدَيْنِ، وصلَةِ الأَرْحَامِ، وَيُبَصِّرُكَ بعُيُوبِ نَفْسِكَ، وَيَدْعُوكَ إِلَىٰ مكَارِمِ الأَخْلاقِ وَمَحَاسِنِهَا بقَوْلِه وَفِعْلِه وَحَالِه؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ مَجْبُولٌ عَلَىٰ الاقْتِدَاءِ بِصَاحِبِهِ وَجَلِيسِهِ، وَالطِّبَاعُ وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ يَقُودُ بَعْضُهَا إِلَىٰ الخَيْرِ، أَوْ إِلَىٰ ضِدِّهِ.

وَأَقَلُّ مَا تَسْتَفِيدُ مِنَ الجَلِيسِ الصَّالِحِ (وَهِيَ فَائِدَةٌ لا يُسْتَهَانُ بِهَا) أَنْ تَنْكَفَّ بِسَبَبِه عَنِ السَّيِّئَاتِ وَالمَعَاصِي؛ رِعَايَةً للصُّحْبَةِ، وَمُنَافَسَةً في الخَيْرِ، وَتَرَفُّعًا عَنِ الشَّرِّ، وأَنْ يَحْفَظَكَ في حَضْرَتِكَ وَمَغِيبِكَ، وأَنْ تَنْفَعَكَ مَحَبَّتُهُ وَدُعَاؤُهُ في حَالِ حَيَاتِكَ، وَبَعْدَ مَمَاتِكَ، وَأَنْ يُدَافِعَ عَنْكَ بِسَبَبِ اتِّصَالِه بِكَ، وَمَحَبَّتِه لَكَ.

وَتِلْكَ أُمُورٌ لا تُبَاشِرُ أَنْتَ مُدَافَعَتَهَا، كَمَا أَنَّهُ قَدْ يَصِلُكَ بِأَشْخَاصٍ وَأَعْمَالٍ يَنْفَعُكَ اتِّصَالُكَ بِهِمْ.

وَفَوَائِدُ الأَصْحَابِ الصَّالِحِينَ لا تُعَدُّ وَلا تُحْصَىٰ،

وَحَسْبُ المَرْءِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِقَرِينِه، وَأَنْ يَكُونَ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِه.

وَأَمَّا مُصَاحَبَةُ الأَشْرَارِ فَإِنَّهَا بِضِدِّ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَا، وَهُمْ مَضَرَّةٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ عَلَىٰ مَنْ صَاحَبَهُمْ، وَشَرٌّ عَلَىٰ مَنْ خَالَطَهُمْ، فَكَمْ هَلَكَ بِسَبَبِهِمْ أَقْوَامٌ، وَكَمْ قَادُوا أَصْحَابَهُمْ إِلَىٰ المَهَالِكِ مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُونَ وَمِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ»[١].

فَانْظُرْ - يَا بُنَيَّ - إِلَىٰ تِلْكَ الدُّرَرِ الَّتِي تَفَوَّهَ بِهَا عَالِمٌ مُبَجَّلٌ، وَأَعِدِ النَّظَرَ حَوْلَهَا، حِينَهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ قَرَّبَ لَكَ الحَدِيثَ، وَشَرَحَهُ شَرْحًا جَلِيلاً، فَمَا عَلَيْكَ - يَا بُنَيَّ - إِلاَّ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ هَذَا الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ

---

(١) انظر «بَهْجَةُ قُلُوب الأَبْرَار» لابْنِ سَعْدِيْ (ص٣١٣، ٣١٤) الحديث الثَّامن والسِّتُّون.

كُلُّ مَا يَلْمعُ ذهَبًا، فَلابُدَّ أَنْ يُخْتَبَرَ الذَّهَبُ بِالنَّارِ، وَيُخْتَبَرَ الجَلِيسُ بالتَّجْرِبَةِ، فَقَد قيل:

فَـــلا تَقْنَعْ بِأَوَّلِ مَــــا تَراهُ
فَـأَوَّلُ طَالِعٍ فَـجْــرٌ كَـذُوبُ

وَقِيلَ:

لا تَحْمَدَنَّ امْرأً حَتَّىٰ تُجَرِّبَهُ
وَلا تَذُمَّنَّهُ مِنْ غَيْرِ تَجْرِيبِ

الصَّاحِبُ الصَّالِحُ
لا يَشْقَى بِهِ جَلِيسُهُ

أَيْ بُنَيَّ، مَنْ صَاحَبَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ نَالَ مِنْ بَرَكَةِ صَلَاحِهِ، وَإِنْ كَانَ دُونَهُ بِمَرَاحِلَ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ للهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلاً، يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّىٰ يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ.

قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: مِنْ

(١) رواهُ البُخَارِيُّ (٦٤٠٨)، ومُسْلِمٌ (٢٦٨٩)، واللَّفْظُ لَهُ.

أَيْنَ جِئْتُمْ؟ ، فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ.

قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟. قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟، قَالُوا: لا ، أَيْ رَبِّ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟!.

قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قَالَ: وَمِمَّا يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ ،قَالُوا: لاَ، أَيْ رَبِّ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟!. قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا.

قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ، فِيهِمْ فُلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ؛ هُمُ الْقَوْمُ لاَ

يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

أَيْ بُنَيَّ، أَرَأَيْتَ ذَلِكَ الشَّقِيَّ، كَيْفَ سَعِدَ بِمُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، وَكَيْفَ غَفَرَ اللهُ لَهُ بِفَضْلِ مُصَاحَبَتِهِ لَهُمْ، وَاعْلَمْ -يَا بُنَيَّ- أَنَّهُ لا يَسْتَوْحِشُ مِنْ مُصَاحَبَةِ الصَّالِحِينَ، وَيَأْنَسُ لِغَيْرِهِمْ إِلاَّ مَحْرُومٌ مِنَ الخَيْرِ.

وَمِنْ مَنْثُورِ الحِكَمِ: «صُحْبَةُ الأَشْرَارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالأَخْيَارِ»[1].

أَيْ بُنَيَّ، تَوَلَّ الصَّالِحِينَ وَأَحِبَّهُمْ فِي اللهِ، وَأَبْغِضْ دُخَلاءَ السَّوْءِ بِقَدْرِ قُرْبِهِمْ مِنَ الشَّرِّ وَبُعْدِهِمْ مِنَ الخَيْرِ؛ تَسْلَمْ بِإِيمَانِكَ؛ فَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا - ﷺ - : «**أَوْثَقُ عُرَىٰ**

---

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (١٨١).

(٢) حَسَنٌ، أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ (٣/ ١٢٥)، والبَغَوِيُّ في «شرح السُّنَّة» (١٣/ ٥٣/ ٣٤٦٨)، وحسَّنه الأَلْبَانِيُّ في «الصحيحة» (٩٩٨).

الإيمان: المُوالاةُ في الله، والمُعاداةُ في الله، وَالحُبُّ في الله، وَالْبُغْضُ في الله»[٢].

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذي يَقُولُ:

وَأَحِبَّ لِحُبِّ اللهِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا

وَأَبْغِضْ - لِبُغْضِ اللهِ - أَهْلَ التَّمَرُّدِ

وَمَا الدِّينُ إِلاَّ الحُبُّ، وَالْبُغْضُ، والوَلا

كَذَاكَ الْبَرَا مِنْ كُلِّ غَاوٍ وَمُعْتَدِي

الصَّاحِبُ السَّيِّئُ يَشْقَىٰ بِهِ جَلِيسُهُ

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا كَانَ الصَّاحِبُ الصَّالِحُ لا يَشْقَىٰ بِهِ جَلِيسُهُ؛ فَإِنَّ الصَّاحِبَ السَّيِّئَ قَدْ يَشْقَىٰ بِهِ جَلِيسُهُ؛ فَإِنَّ أُنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ خَرَجُوا يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ هُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - يَرْمِي أَحَدُهُمْ أَخَاهُ، فَيَقَعُ الْحَرَجُ، وَلَكِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أَنْزَلَ مَا يُرْفَعُ بِهِ الْحَرَجُ، مَعَ وَعِيدٍ شَدِيدٍ لِلَّذِينَ خَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - :أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ؛

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٥٩٦).

يُكَثِّرُونَ سَوَادَ المُشْرِكِينَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَىٰ بِهِ ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) ﴾ [النِّسَاءُ: ٩٧].

فَانْظُرْ ـ يَا بُنَيَّ ـ كَيْفَ أَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي حَلَّ بِالكَافِرِينَ قَدْ شَمِلَ أُنَاسًا مِنَ المُسْلِمِينَ بِسَبَبِ خُرُوجِهِمْ مَعَهُمْ، وَتَاللهِ ، إِنَّا لَنَخْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ يُجَالِسُ أُنَاسًا عُرِفُوا بِمُقَارَفَةِ المَعَاصِي كَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَالتَّعَرُّضِ لِبَنَاتِ المُسْلِمِينَ ـ مِنْ أَنْ تَشْمَلَهُمْ عُقُوبَةُ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ ، وَالْعَاقِلُ ـ يَا بُنَيَّ ـ لا يُخَاطِرُ بِدِينِهِ.

وَكُلُّ خَلِيلٍ لَيْسَ فِي اللهِ وُدُّهُ

فَإِنِّي بِهِ فِي وُدِّهِ غَيْرُ وَاثِقِ

الصَّالِحُ وَغَيْرُ الصَّالِحِ لا يَجْتَمِعَانِ

أَيْ بُنَيَّ، احْذَرْ أَنْ تُصَاحِبَ غَيْرَ الصَّالِحِ بِحُجَّةِ أَنَّ لَكَ أَصْحَابًا صَالِحِينَ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ، وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ يَكُونُ مَوْقِفُ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ ضَعِيفًا؛ لأَنَّهُ لَيْسَ مَنْ يَرْفَعُكَ إِلَىٰ الْقِمَّةِ، كَمَنْ يَهْبِطُ بِكَ إِلَىٰ الوَادِي؛ فَالجَنَّةُ إِنَّمَا حُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، زِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ المَرْءَ قَدْ يُخْذَلُ عَلَىٰ مُوَالاتِهِ مَنْ يُحَارِبُ مَوْلاهُ ، وَيَتَّخِذُهُ وَالِيًا !.

وَلَكَ - يَا بُنَيَّ - أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَلْحَقَهُ الصَّاحِبُ السَّيِّئُ أَبُو جَهْلٍ بِأَبِي طَالِبٍ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ

اللَّهِ - ﷺ -، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ ابْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «**يَا عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**»(١).

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وَهَذَا - يَا بُنَيَّ - يَدُلُّ عَلَى خُطُورَةِ صَدِيقِ السُّوءِ.

وَمَا بَيْنَ الصَّاحِبَيْنِ إِلَّا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَنْ يَجْتَمِعَا إِلَّا كَمَا يَجْتَمِعُ الْمَاءُ وَالنَّارُ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٨٨٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٤).

شَتَّانَ بَيْنَ الحَالَتَيْنِ (١)، فإنْ تُرِدْ
جَمْعًا، فَمَا الضِّدَّانِ يَجْتَمِعَانِ

وَاللهِ ، مَا اجْتَمَعَا ، وَلَنْ يَتَلاقَيَا
حَتَّى تَشِيبَ مَفَارِقُ (٢) الْغِرْبَانِ

(١) أيْ: بَعُدَ جداً ما بينهما

(٢) المَفارِقُ: جَمْعُ مَفْرِق - بزِنَةِ مَقْعَدٍ وَمَجْلِسٍ -، وهُو وَسطُ الرَّأْسِ الَّذي يُفْرَقُ فِيهِ الشَّعْرُ.

اخْتِيارُ الأَصْحَابِ

أَيْ بُنَيَّ، اسْبُرْ أَحْوَالَ مَنْ تُصَاحِبُ قَبْلَ أَنْ تُصَاحِبَهُ، وَاكْشِفْ عَنْ أَخْلاقِهِ قَبْلَ اصْطِفَائِه، كَمَا قِيلَ: «اسْبُرْ تَخْبُرْ»(١).

وَقِيلَ:

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيْنًا(٢)

مَا بَدَى الْكِيرُ عَنْ خَبَثِ الحَدِيدِ(٣)

وَمِنْ مَنْثُورِ الحِكَمِ: «اعْرِفِ الرَّجُلَ مِنْ فِعْلِهِ، لا مِنْ كَلامِهِ، وَاعْرِفْ مَحَبَّتَهُ مِنْ عَيْنِهِ، لا مِنْ لِسَانِهِ»(٤).

وَمَنْ لا يُحْسِنِ الاخْتِيَارَ، ظَنَّ النَّاسُ بِهِ مَا يُظَنُّ بِصَاحِبِهِ، كَمَا قِيلَ:

---

(١) «أدب الدُّنْيا والدِّين» (ص١٦٦).
(٢) اللُّجَيْنُ -بالتَّصْغير- الفضَّة.
(٣) انظر «الفرائد في الأمثال» للخولي (ص٢٨١).
(٤) «أدب الدُّنْيا والدِّين» (ص١٦٦).

«الإِنْسَانُ مَوْسُومٌ بِسِيماءِ مَنْ قَارَبَ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ أَفَاعِيلُ مَنْ صَاحَبَ»(١).

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: «يُظَنُّ بِالمَرْءِ مَا يُظَنُّ بِقَرِينِه»(٢).

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِه
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارَنِ يَقْتَدِي
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيارَهُمْ
وَلا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي(٣)

قَالَ المَاوَرْدِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «فَلَزِمَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ - أَيْضًا - أَنْ يَتَحَرَّزَ مِنْ دُخَلاءِ السُّوْءِ، وَيُجَانِبَ أَهْلَ الرِّيَبِ؛ لِيَكُونَ مَوْفُورَ الْعِرْضِ، سَلِيمَ الْغَيْبِ، فَلا يُلامُ بِمَلامَةِ غَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: التَّثَبُّتُ وَالارْتِيَاءُ، وَمُدَاوَمَةُ الاخْتِيَارِ وَالابْتِلاءِ مُتَعَذِّرٌ، بَلْ مَفْقُودٌ، وَقَدْ ضَرَبَ ذُو

(١) ، (٢) «أدب الدُّنْيا والدِّين» ، (ص١٦٧).

(٣) «أدب الدُّنْيا والدِّين» (ص١٦٧).

الرُّمَّة مَثَلاً بالماءِ فيمَنْ حَسُنَ ظَاهِرُهُ، وَخَبُثَ بَاطِنُهُ، فَقَالَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الماءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ

وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الماءِ أَبْيَضَ صَافِيا

وَنَظَرَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ إِلَىٰ رَجُلٍ سَوْءٍ حَسَنِ الْوَجْهِ، فَقَالَ: أَمَّا الْبَيْتُ فَحَسَنٌ، وَأَمَّا السَّاكِنُ فَرَدِيءٌ، فَأَخَذَ جَحْظَةُ (١) هَذَا المَعْنَىٰ، فَقَالَ:

رُبَّ مَا أَبْيَنَ التَّبَايُنَ فِيهِ

مَنْزِلٌ عَامِرٌ وَعَقْلٌ خَرَابُ!

وَأَنْشَدَ فِي بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ:

لا تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ ذِي مَنْظَرٍ حَسَنٍ

فَرُبَّ رَائِعَةٍ قَدْ سَاءَ مَخْبَرُهَا

(١) جَحْظَةُ: لَقَبُ أَحمَدَ بْنِ مُوسىٰ بْنِ يحْيَىٰ بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ، كَانَ شَاعِرًا أَدِيبًا جَاحِظَ العَيْنَيْنِ، ت: سنة ٣٢٤ هـ.

مَا كُلُّ أَصْفَرَ دِينَارٌ لِصُفْرَتِهِ
صُفْرُ الْعَقَارِبِ أَرْدَاهَا وَأَنْكَرُهَا[١]

ثُمَّ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ الْحُكَمَاءِ: مَنْ لَمْ يُقَدِّمِ الامْتِحَانَ قَبْلَ الثِّقَةِ، وَالثِّقَةَ قَبْلَ الأُنْسِ- أَثْمَرَتْ مَوَدَّتُهُ نَدَمًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مُصَارَمَةٌ قَبْلَ اخْتِبَارٍ، أَفْضَلُ مِنْ مُؤَاخَاةٍ عَلَى اغْتِرَارٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: لا تَثِقْ بِالصَّدِيقِ قَبْلَ الْخِبْرَةِ، وَلا تَقَعْ بِالْعَدُوِّ قَبْلَ الْقُدْرَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

لا تَحْمَدَنَّ امْرأً حَتَّى تُجَرِّبَهُ
وَلا تَذُمَّنَّهُ مِنْ غَيْرِ تَجْرِيبِ
فَحَمْدُكَ الْمَرْءَ مَا لَمْ تَبْلُهُ خَطَأٌ
وَذَمُّهُ بَعْدَ حَمْدٍ شَرُّ تَكْذِيبِ

(١) أَرْدَاهَا: مِنَ الرَّدَى أي: أَسْرَعُهَا إِهْلاكًا، وَأَخْبَثُهَا سُمًّا.

وَإِذَا قَدْ لَزِمَ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ سَبْرُ الإِخْوَانِ قَبْلَ إِخَائِهِمْ، وَخِبْرَةُ أَخْلاقِهِمْ قَبْلَ اصْطِفَائِهِم(١).

وَاخْتِيَارُ الصَّاحِبِ - يَا بُنَيَّ - لا يَكُونُ فِي أَشْهُرٍ، فَضْلاً عَنْ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ لَيَحْتَاجُ إِلَىٰ سَنَوَاتٍ، أَلَيْسَ مِنَ الحَزْمِ أَنْ تَطُولَ فَتْرَةُ الاخْتِبَارِ مَعَ التَّحَفُّظِ وَتَرْكِ الاسْتِرْسَالِ؛ لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ مِثْلُ كُتُبِ التَّفَاسِيرِ، وَبَعْضَهُمْ مِثْلُ كُتُبِ الأَحَادِيثِ، وَبَعْضَهُمْ مِثْلُ كُتُبِ الْفَلْسَفَةِ، وَبَعْضَهُمْ مِثْلُ كُتُبِ السِّحْرِ، وَبَعْضَهُم مِثْلُ كُتُبِ الطَّلاسِمِ، وَبَعْضُ تِلْكَ الْكُتُبِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ قِرَاءَةٍ نَقْدِيَّةٍ، وَبَعْضُهَا تُهْمَلُ لِظُهُورِ شَرِّهَا، فَكَذَلِكَ الأَصْحَابُ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مِنَ الحَزْمِ الاخْتِبَارُ قَبْلَ الاخْتِيارِ مَا رَوَىٰ خُرَاشَةُ بْنُ الحُرِّ - رَحِمَهُ اللهُ - قَالَ: «شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ - رضي الله عنه -، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنِّي

---

(١) «أَدَب الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٧، ١٦٨).

لَسْتُ أَعْرِفُكَ، ولاَ يضُرُّكَ أَنِّي لا أَعْرِفُكَ، فَائْتِني بِمَنْ يَعْرِفُكَ. فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَعْرِفُهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ -. قَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ؟!.

قَالَ: بِالْعَدَالَةِ. قَالَ: هُوَ جَارُكَ الأَدْنَىٰ، تَعْرِفُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَمُدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟.

قَالَ: لا. قَالَ: فَعَامَلَكَ بِالدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِمَا عَلَىٰ الْوَرَعِ؟. قَالَ: لا. قَالَ: فَصَاحَبَكَ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ؟ قَالَ: لا. قَالَ: فَلَسْتَ تَعْرِفُهُ»[1].

وَهَذَا - يَا بُنَيَّ - يَدُلُّكَ عَلَىٰ عِنَايَةِ السَّلَفِ فِي اخْتِبَارِ الرِّجَالِ، وَسُمُوِّ أَنْفُسِهِمْ، وَقُوَّةِ شَخْصِيَّاتِهِمْ، وَتَمَيُّزِهِمْ بِالْعَزْمِ وَالْحَزْمِ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) صحيح، أخرجه العقيليُّ (٣٥٤)، والبيهقيُّ (١٠/١١٥)، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٦٣٧).

قَالَ أَحَدُهُمْ:

لا يُعْجِبَنَّكَ صَاحِبٌ
حَتَّىٰ تَبَيَّنَ مَا طِبَاعُهْ
مَاذَا يَضَنُّ[1] بِهِ عَلَيْـ
ـكَ ؟ وَمَا يَجُودُ بِهِ اتِّسَاعُهْ؟
أَوِ الَّذِي يَقْوَىٰ عَلَيْـ
ـهِ وَمَا يَضِيقُ بِهِ ذِرَاعُهْ؟
وَإِذَا الزَّمَانُ رَمَىٰ صَفَا
تَكَ بِالحَوَادِثِ، مَا دِفَاعُهْ؟
فَهُنَاكَ تَعْرِفُ مَا ارْتِفَا
عُ هَوَىٰ أَخِيكَ، وَمَا اتِّضَاعُهْ

وَفِيمَا يَأْتِي مِنَ الصَّفَحَاتِ الحَدِيثُ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ

(١) يَضَنُّ: يَبخَل.

الصَّاحِبِ الصَّالِحِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا(١)، وَبَعْضُ الخِلالِ المَوْجُودَةِ فِي دُخَلاءِ السَّوْءِ؛ حَتَّىٰ تَكُونَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ، وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

---

(١) لا تَحْسَبْ أَنَّكَ سَوْفَ تَجِدُ أَخَاكَ الصَّالِحَ كَمَا كُنْتَ تَظُنُّ سالمًا من العُيُوبِ، بَلْ حَسْبُكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنْ أَخِيكَ أَكْثَرُهُ، كَمَا قِيلَ: «إِذَا كَانَ لَكَ أَكثري، فَتجَافَ عَنْ أَيسَرِي».
وَقَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: «مَا كَشَفْتُ أحدًا - قطُّ - إلاَّ وجَدتُهُ دُونَ ما كُنتُ أَظُنُّ».

هُمُ النَّاسُ والدُّنيا ولابُدَّ مِنْ قَذَى ... يلُمُّ بعَيْنٍ أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبا
ومن قِلَّةِ الإنصَافِ أَنَّكَ تَبْتَغِي الْـ ... مُهَذَّبَ في الدُّنيا ولَسْتَ المُهَذَّبا